

## ما بين الهوية والشعبوية: جدل الهبوط والصعود في قيم الانتماء في العالم المعاصر

■ أحمد زايد

### مقدمة:

يُجادل هذا المقال حول سؤال محوري يتعلّق بمشكلات العالم المعاصر مفاده: إلى أيّ مدى تُشكّل قضايا الهوية - من ناحية - وقضايا الشعبوية - من ناحية أخرى - استقطاباً في قيم الانتماءات الفردية والجماعية في المجتمع المعاصر؟ ثمة دلالة مهمة في طرح السؤال على هذا النحو، تتعلّق بالتناقض بين الالتصاق بالهوية - التي تستدعي الجذور اللغوية والدينية والثقافية - وبين الدعاوى الشعبوية التي تتعلّق بالحشد الجماهيري، وتفرض سياقات عامة ذات أبعاد شمولية، تتجاوز الجزئيات والحدود الضيقة للهوية. ومع هذا التناقض الظاهر فإنّ الخبرات التاريخية تخبرنا بإمكانية أن تستدعي النزعات الشعبوية هويةً بعينها، تؤكدها وتُعيد إنتاجها، عبّر تأكيد أبعادها اللغوية والتاريخية. ولكن هذا الميل الشعبي نحو تأكيد هويةً بعينها يعني - في الوقت ذاته - استبعاد هويّات أخرى، والعمل على تهميشها، وربما مَحْوِها تماماً من دائرة الوجود السياسي. ولكن يبقى السؤال دائماً، لماذا هذا الدوران حول الهوية

■ أستاذ علم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة القاهرة.



الضيقة تارة، والهوية الكلية تارة أخرى؟ وكيف يتشكل هذا الدوران في عالم العولمة وما يحيط بها من تحديات.

ويدخلنا ذلك في لب القضية: إن تأكيد الهوية ينزل بالناس إلى أسفل بحثاً عن الجذور والأصالة، إنها نزعة تشطّ وتفكك، أما الدعوات الشعبوية فإنها تصعد بالناس إلى أعلى، مستدعيةً روح الجماعة. وتقوم كل منهما على أخرى استبعادية تهميشية؛ فالتأكيد على هوية بعينها يعني استبعاد الهويات الأخرى، والتأكيد على الشعارات الكلية الجمعية عبر النزعة الشعبوية يلغي التعددية ويطمس معالم «الأخر». وإذا كان عالمنا المعاصر يشهد ميولاً نحو النزول إلى دوائر الهوية تارةً، ونحو الصعود إلى الدوائر الكلية للشعبوية تارةً أخرى؛ فإن معنى ذلك أن الوجود العالمي المعاصر يتأسس على تناقض استقطابي، يجعل الأفراد يدورون في أفلاك الهوية وأفلاك الشعبوية، والكل يدور في فلك أكبر هو فلك العولمة ذات الطابع الكوني. ينقسم وجودهم بين هبوط وصعود، فتفقد القيم معناها. إذ ينشطر الانتماء ويتمزق بين أشكال من «النحن»: (النحن الضيق للهوية، والنحن الأوسع للوطن، والنحن المعولم ذي الصبغة العالمية. في الشكل الأول يطل الانقسام برأسه، وقد تدخل الجماعات في صور من الصراع العرقي والإثني أو الإقليمي أو الديني، وفي الشكل الثاني تُمحي الهويات الضيقة، وتفرض صياغة واحدة للحياة لها شعاراتها وعداوتها وتحالفاتها الخاصة، وفي المستوى الثالث تُمحي الأوطان، وتتقلص مستويات السيادة، ويصبح الفعل منفتحاً على احتمالات كثيرة.

وعلى هذه الخلفية تفترض هذه الورقة أن الالتفاف حول الهويات الضيقة، وكذلك السعي نحو الشعبوية: يخلق لكلٍ منهما (أعني الهوية والشعبوية) أزمةً داخلية، تدفع الفعل هنا وهناك إلى مشكلات تفاعلية (اتصالية) مع الآخر، تستدعي العداوة والإقصاء والتهميش. ومن هنا تتفاعل عوامل داخلية خاصة بالأطر الثقافية الضيقة، أو الأيديولوجيات الشعبوية مع عوامل خاصة بالسياق الثالث الذي يحوي الاثنين معاً، أعني سياق العولمة؛ لتكون النتيجة مجتمعاً يستبدل الانقسام بالتعددية، والعنف بالسلام، والفوضى بالتماسك.

## أولاً: الهوية: المفهوم والأزمة

### 1 - مفهوم الهوية

يبدأ تشكيل الهوية من الذات أو الأنا، وذلك عندما نتحدث عن الهوية الفردية، التي تميّز كل فاعل فرد عن الفاعلين الآخرين. فالهوية الفردية تتشكّل حول مفهوم الذات، الذي يتشكل في ضوء معارف الفرد حول نفسه في علاقته بالآخرين. ولا يستطيع الفرد أن يعيش بهذا التصور عن الذات، أو بهويته الذاتية أو الفردية، فلا بد له من أن يُعبر مما هو ذاتي إلى ما هو اجتماعي. وهنا تتشكّل هوية الفرد الاجتماعية، والتي تشتق من معرفة

يبدأ تشكيل الهوية من الذات أو الأنا، وذلك عندما نتحدث عن الهوية الفردية، التي تميّز كل فاعل فرد عن الفاعلين الآخرين. فالهوية الفردية تتشكّل حول مفهوم الذات، الذي يتشكل في ضوء معارف الفرد حول نفسه في علاقته بالآخرين.

الفرد بهويته في جماعة (أو في جماعات)، بما تحمله هذه العضوية من الالتزام بقيم معينة، وقدرٍ من الالتزام الشعوري (العاطفي) بالجماعة<sup>1</sup>. تبدأ الهوية الاجتماعية في التشكل إذن مع الاندماج في الجماعة، وهو اندماج يظهر في صور من التفاعل والتعامل داخل الجماعة، كما يظهر في الالتزام بخطاب الجماعة وقيمها الثقافية، هنا ينصهر الذاتي مع الموضوعي، وتصبح الذات جزءاً من الجماعة، أو - كما يقال - تذوب «الأنا» في «النحن»، فيصبح الانتماء إلى الجماعة حاضراً ومؤثراً بجانب

المشاعر الأنانية الذاتية. ويعبر علماء النفس عن هذه الحالة بمفهوم الذات الممتدة Extended Self<sup>2</sup>، الذي يؤشّر على تمدد (الأنا) في (النحن)، بحيث يصبح الآخر جزءاً لا يتجزأ من الذات أو الأنا؛ كما يعبر عنها علماء الاجتماع عن المعنى نفسه بمفهوم الذات العامة، أو الذات المعممة generalized self؛ أي الذات الكلية التي تتشكّل عبر انصهار الذوات الفردية

1 - H. Tajfel, *Differentiation Between Social Groups: Studies in Intergroup Relations*: London Academic Press. 1978. p. 63.

2 - R. W. Belk, "Possessions and Extended Self" *Journal of Consumer Research*, 15. 139-168.



في الذات العامة. فالذوات الفردية تتعلم كيف تأوي ذاتها في المجتمع عبر إنغراس الذات في الجماعة وإيلافها لعاداتها وتقاليدها<sup>3</sup>. وأياً كان المفهوم فإن الأمر ينتهي دائماً إلى شكل من أشكال التوحد مع الجماعة؛ بحيث يدرك المرء ذاته من خلال الجماعة، ويصبح متوحداً معها.

عند هذا الحد تبدأ خيوط الهوية الاجتماعية في التشكل، عندما تعبر الذات من الهوية الفردية إلى هوية الجماعة، التي تتشكل من خلال المشاعر المشتركة داخل الجماعة، والتي تدرك من خلالها اختلافها عن الجماعات الأخرى. ويعتبر الوعي بوجود الجماعة في مقابل الجماعات الأخرى هو بداية تكوين الهوية الاجتماعية، فالرابطة الكلية تتشكل - وكما ذهب هيجل - عبر الوعي بالآخر، والذي يؤدي كلما ازداد إلى مزيد من قوة الرابطة داخل الجماعة<sup>4</sup>. ويعدّ الوعي الجمعي (الذي يدرك الاختلاف عن الجماعات الأخرى) عن حالة من البحث عن التشابه داخل الجماعة، أو المشترك داخل الجماعة، الذي يمكن النظر إليه على أنه سبيل إلى تكوين «ذات البين». لا تصبح الجماعة هنا أجساداً وعقولاً ونفوساً متفرقة؛ بل تصبح جسداً اجتماعياً يحمل من الترابط والالتحام والتعاقد أكثر مما يحمل من الانقسام والتباعد والفرقة. ويزداد هذا الترابط عبر التمسك بما تملكه الجماعة من إرث مشترك مثل اللغة والدين والتاريخ، وعبر استراتيجيات تستخدمها الجماعة لتعميق هويتها واستمرارها، وهو ما يطلق عليه في دراسات الهوية «استراتيجيات تشكيل الهوية».

3 - انظر حول مفهوم الذات العامة في التفاعلية الرمزية: أحمد زايد، علم الاجتماع: النظريات الكلاسيكية والنقدية، القاهرة: دار نهضة مصر، 2006 (الطبعة الثانية)، الفصل التاسع.

4 - يذهب هيجل إلى القول بأن الأنا يوفر للبشر قدراً من اليقين حول هويتهم، وهم يعتقدون بأن هذه الهوية تضمن لهم معرفة أنفسهم. ولكن الفرد عندما يدرك الآخرين ويعرفهم فإن وعيه يتحول من الذات إلى الآخر، فيصير وعياً عالمياً، كما أن بحثه عن الإرادة الحرة، وعن الحرية يستدعي فكرة الحق الذي يجعله قادراً على أن يتعايش مع الآخرين، وفقاً لقوانين لا يمكن كسرها؛ لأن فكرة الحق نفسها تخلق مبدأ عاماً بأنه لا يمكن كسر القوانين التي تحمي حقوق الجميع. انظر: عبد الحميد كرم، هيجل ومشكلة الهوية، صوت العقل، متاحة على الموقع التالي: [www.Sawtalaql.blogspot.com](http://www.Sawtalaql.blogspot.com) (تاريخ الزيارة 2020/5/9).

وتعمل استراتيجيات تشكيل الهوية وتعميق إدراك حدودها - سواء كانت هوية ذاتية أو جمعية - عبر آليات معينة، تشمل أبعاداً مختلفة، بدءاً من التوحد مع المكان والعناصر المادية الكامنة فيه بما في ذلك الممتلكات الشخصية والجماعية، وتعميق المدركات الذاتية والجمعية حول الجماعة، تلك المدركات التي تجعل الانتماء للجماعة أقوى من الانتماءات الأخرى، وتعمل هذه المدركات على تشكيل استراتيجية لتعريف الجماعة وإدراك حدودها في مقابل الجماعات الأخرى، مع تعميق وممارسة هذا التعريف على أرض الواقع، وتعميق استراتيجيات تشكيل الهوية من خلال الجوانب الاجتماعية والثقافية، التي

**تبدأ خيوط الهوية الاجتماعية في التشكل، عندما تعبر الذات من الهوية الفردية إلى هوية الجماعة، التي تتشكل من خلال المشاعر المشتركة داخل الجماعة، والتي تدرك من خلالها اختلافها عن الجماعات الأخرى.**

تنحصر في تعميق الانتماء إلى ثقافة يعينها وإلى رموز ثقافية يعينها، والحفاظ على الذكريات الجمعية للجماعة، وتأكيد الحضور التاريخي لها عبر سرديات الذاكرة. وتعمل هذه الآليات الثقافية على تكوين ذخيرة ثقافية واجتماعية للجماعة<sup>5</sup>.

وإذا كانت الهوية تتشكل على هذا النحو فماذا عسى أن يكون تعريفها. سوف نركن هنا إلى التعريف الذي قدمه هنري تاجفيل H. Tajfel في نظريته حول الهوية الاجتماعية، والتي حددها بأنها تتشكل عبر شعور الأفراد بكيونوتهم في ضوء

عضويتهم في الجماعة؛ بحيث تصبح الجماعة بالنسبة لهم مصدراً للفخر وتقدير الذات<sup>6</sup>. ويقوم هذا الشعور على إدراك الاختلافات بين الجماعات، في مقابل التأكيد على مظاهر التشابه فيها، مع الميل إلى تعظيم مزايا الجماعة الداخلية للفرد، في مقابل إبراز الجوانب السلبية في الجماعات الأخرى. وفي

5 - انظر حول عمليات تشكيل الهوية والانتقال من الهوية الفردية إلى الهوية الاجتماعية المرجع التالي:

V. L. Vignoles, "Identity: Personal and Social": in: K. Deaux and M. Snyder, *Oxford Handbook of Personality and Social Psychology*, 2<sup>nd</sup> edition. Oxford: Oxford University Press, 2017, available on: Reseachgate.com

6 - راجع كتاب تاجفيل Tajfel المشار إليه في الهامش رقم (1)، ص 50 - 64.



ضوء ذلك فإن الهوية الاجتماعية تعدُّ مقولة اجتماعية Social Category؛ بمعنى أنها تشير إلى مجموعة من الأفراد الذين ينتمون إلى جماعة معينة، ويعرفون أنفسهم بأوصاف تجعل لهم «سماً» معيناً أو «صبغة معينة»، أو قُلْ: شارة أو علامة تميّزهم عن الآخرين، وتجعلهم يلتزمون بقواعد الجماعة وشروط عضويتها، والتأكيد باستمرار الجماعة عبر خصائصها المميزة. وتختلف هذه السمات أو الخصال الجمعية باختلاف طبيعة الشارة التي توصف بها الجماعة، ومن هنا تظهر إمكانية التفرقة بين صور متعدّدة من الهوية مثل الهوية العرقية والهوية القومية والهوية الإقليمية<sup>7</sup>. تبدو الهوية هنا وكأنها رابطة من نوع خاص، يتم بناؤها اجتماعياً وعبر مؤسسات ورموز دينية. ويتم الحفاظ عليها عبر الزمن، ونأخذ هذه الروابط أشكالاً متعدّدة، تتحاذى وتتقاطع عبر الانتماءات المختلفة للفرد، بدءاً من بيئته المحلية وجماعته القرابية، ومروراً بالانتماءات السياسية والمعيشية والمهنية، وانتهاءً بالانتماءات الوطنية. ولذلك يصح أن نتحدّث في المجتمع عن هوية واحدة، وهي الهوية الوطنية، ولكن يصح أن نتحدّث أيضاً عن هويات متنوعة.

## 2 - أزمة الهوية: قيم الانكفاء على الذات:

ألا يمكن أن يتحول الانتماء إلى الهوية إلى مشكلة؟ صحيح أن الهوية هي أحد أطر الانتماء المهمة، ولا أحد يستطيع أن يخرج الإنسان من هويته، أو أن يمحو هوية الجماعة كلية، أو صحيح أيضاً أن المجتمعات الأكثر حيوية واستقراراً هي المجتمعات التي تتعدد فيها الهويات؛ ولكنها تحافظ دائماً على أن هذا التعدد قائم في إطار كلي، هو إطار الدولة الوطنية التي تعدّ الوعاء الذي يلم تحت عبايته كل أشكال الانتماء، ويخضعها جميعاً - رغم محافظته على تعدديتها - للانتماء الأكبر: انتماء الوطن والمواطنة. ولكن السؤال الذي طرحته للتو يظل ملحاً: ألا يمكن أن تتحول الهوية إلى

7 - انظر حول الطريقة التي تشكل بها الانتماء إلى الفئات الاجتماعية:

James D. Fearon, *What is Identity* available online: [www.stanford.fearon.edu/group](http://www.stanford.fearon.edu/group) (تاريخ

الزيارة 2020/4/10).

مشكلة؟ يقودنا السؤال إلى طرح قضية أزمة الهوية، والتعرف على أشد أشكالها خطورة.

وعندما نتحدث عن أزمة الهوية فإننا نشير إلى خلل في تكوين الهوية، يجعلها مصدراً لشكل من أشكال التوتر في علاقتها مع الهويات الأخرى أو الهوية الوطنية للمجتمع. وقد أشار هابرماس Habermas إلى إمكانية أن يدخل النسق في أزمة هوية، وفرّق في هذا الصدد بين نوعين من أزمة الهوية التي يمكن أن تتعرض لها الأنساق (الجماعات - التنظيمات - المجتمعات أو حتى الأفراد)، الأول هو أزمة الشرعية Legitimation Crisis، وتظهر عندما يفشل

عندما نتحدث عن أزمة الهوية فإننا نشير إلى خلل في تكوين الهوية، يجعلها مصدراً لشكل من أشكال التوتر في علاقتها مع الهويات الأخرى أو الهوية الوطنية للمجتمع.

النسق في تلبية مطالب أفراده أو التوقعات التي فرضها على نفسه. والثاني هو أزمة الدافعية Motivation Crisis، وتظهر عندما يفقد النسق المعنى المحرك للفعل؛ وذلك بسبب نقص أو وهن الدافعية<sup>8</sup>. في الحالة الأولى تعجز الجماعة حاملة الهوية عن أداء وظائفها، والتكيف مع ما حولها، وفي الثانية تعجز عن تطوير تكاملية واتساق في تعريف ذاتها. ولذلك فإن أزمة الشرعية تأتي للجماعة من خارجها، من تغيرات موقفية، أما أزمة الدافعية فإنها تتخلق في داخل الجماعة؛ أي من تغيرات داخل الجماعة نفسها.

ولا شك أن هناك علاقة بين جانبي الأزمة؛ فقدان الشرعية أو حدوث خلل فيها أو حتى الحرص عليها يؤدي إلى تغيرات في القيم والتوجهات التي تتحكم في البناء الدافعي للجماعة. ويمكن أن نضيف هنا بُعداً ثالثاً لأزمة الشرعية في الجماعة، يتعلّق بمفهوم الأخرية otherness عند الجماعة. يحدد مفهوم الأخرية علاقة الجماعة بالجماعات الأخرى، كما يحدد علاقتها بالإطار الثقافي الأوسع للمجتمع ككل. ونفترض هنا أن أزمة الشرعية تضع الجماعة

J. Habermas, *Legitimation Crisis*, Boston, MA: Beacon Press 1973. p. 49.



- في كثير من الأحيان - في موقف أقرب إلى رفض الجماعات الأخرى، والتمركز حول هوية الجماعة الأم. وأحسب أن هذا الفهم لأزمة الهوية ينقل موضوع أزمة الهوية من المجال النفسي والاجتماعي إلى المجال الثقافي. إن البعد الثقافي للهوية يظهر في العلاقة بالآخرين من خارج الجماعة؛ فالهوية الثقافية هي - في جوهرها - شعورٌ بالارتباط أو الالتزام بجماعة ثقافية معينة. وبذلك تكون الهوية الثقافية ظاهرة سيكولوجية وثقافية في آن واحد<sup>9</sup>. وفي ضوء هذا الفهم للهوية الثقافية تصبح أزمة الهوية - في جوهرها - أزمة ثقافية، تتحدد في ضوء التغيرات التي تطرأ على قيم الجماعة وتوجهاتها نحو الجماعات الأخرى قبولاً أو رفضاً.

وعند هذا الحد لنا أن نسأل: إذا كانت أزمة الهوية تتشكل عبر أبعاد ثقافية تلقي بظلالها على العلاقة بالآخر، فماذا عسى أن تكون مؤشرات هذه الأزمة في عالمنا المعاصر؟ نفترض هنا أن نمو قيم عدم التسامح، ورفض الآخر، والانكفاء على الذات هي التي تشكل لب أزمة الهوية في العالم المعاصر. ولقد تجلى ذلك - على نحو واضح - في ظهور نزاعات من الدعوة إلى الأصولية في كثير من المجتمعات عبر العالم، واتخذت هذه النزاعات من الدين ركيزة لبناء الهوية، وقد أدى بها ذلك إلى أن تجنح نحو الماضي، وأن تحاول بعث القيم السلفية، وتؤسس لنفسها توجهات سياسية بناء على معطيات دينية أو إعادة تفسير هذه المعطيات في ضوء توجهاتها الاجتماعية والسياسية. ولقد أكد صموئيل هنتنغتون في هذا الصدد أن الحركات الأصولية عبر العالم ألزمت نفسها بالنقاء الجهادي (النضالي)، المرتبط بالمذاهب والمؤسسات الدينية، والعمل على إعادة تشكيل السلوك الشخصي والاجتماعي والسلوك العام؛ لكي يتوافق مع الاتجاهات الدينية<sup>10</sup>. ويؤدي استدعاء الدين لتأكيد الأصولية إلى إعادة صياغة المبادئ والقيم وأساليب

9 - D. Bhugra and K. Bhui, *Text Book of Cultural Psychiatry*: Cambridge: Cambridge University Press, 2007.

10 - S. P. Huntington, *The Clash of Civilization and the Remaking of World Order*, New York: Simon and Schuster, 1996. p. 69.



السلوك والرموز، بحيث تصبح هوية الجماعة واضحة أمام الآخرين، ويصبح خطابها تجاه الآخرين مثقلاً بهذه القيم والرموز الأصولية. ومن شأن هذا أن يزيد من العداوة بين الجماعة التي تبني هويتها على الأصولية وبين الجماعات الأخرى. وهذا هو لب التآزم في الهوية: أعني الانكفاء على قيم ماضوية تخلق توتراً وعداوة مع الآخر.

ويتشكّل هذا التوتر مع الآخر عبر مستويين: الأول هو ذلك التوتر مع التيار الحدائشي بشكل عام؛ أي مع المنظومة العالمية ككل، ويتمثل هذا في أشكال من الممارسات والرموز، التي تؤكد على قيم الأصالة في مقابل القيم الحدائشية،

**إذا كانت أزمة الهوية تتشكّل عبر أبعاد ثقافية تلقي بظلالها على العلاقة بالآخر، فماذا عسى أن تكون مؤشرات هذه الأزمة في عالمنا المعاصر؟ نفترض هنا أن نمو قيم عدم التسامح، ورفض الآخر، والانكفاء على الذات هي التي تشكل لب أزمة الهوية في العالم المعاصر.**

ويبدو الأمر وكأن هناك خوفاً كامناً من الحدائشة ومعطياتها أو عدم قدرة على استيعاب قيم الحدائشة، رغم الحرص من قبل الجماعة نفسها على استخدام المعطيات المادية للحدائشة. ويعكس هذا تناقضاً أصيلاً في المناحي الأصولية حيث لا تجادل في استملاك معطيات الحدائشة المادية في الوقت التي تأخذ موقفاً مناوئاً من أسلوب حياتها ومنجزاتها الفكرية والعقلية<sup>11</sup>. أما المستوى الثاني فإنه يتعلّق بالعداء مع الهويّات المختلفة في الداخل، سواء اعتمدت هذه الهويّات على مرتكزات دينية مخالفة أو مرتكزات فكرية أو عرقية، ويحدث هذا العداء

حتى من الجماعات التي تأخذ اتجاهاً عقدياً مختلفاً داخل الدين نفسه، كما هو الحال في الخلاف بين الشيعة والسنة في الأصولية الإسلامية، أو الخلاف بين الجماعات السلفية نفسها. ومن المتوقع - بطبيعة الحال - أن تؤدي هذه الخلافات الداخلية بين الهويّات المختلفة لا إلى مجرد العداء؛ ولكن إلى أشكال من العنف والاستبعاد والتهميش. فكل جماعة ذات هوية معينة تنظر إلى الجماعات المختلفة في العقيدة على أنها تشكّل مصدراً للخطر والتهديد، وهنا تكون احتمالية العنف

11 - أحمد زايد: تناقضات الحدائشة في مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005.



قائمة. وتؤكد الدراسات في هذا الصدد أنه مع دخول الهويّات المختلفة في حالة صراع مفتوح فإن العنف يكون أحد الاحتمالات الممكنة، وهي احتمالات ثلاثة: إما الاستسلام أمام الخصم، أو الانسحاب من أمام الطرف الآخر، أو الدخول في قتال ينتهي بغلبة أحد الأطراف على الآخر<sup>12</sup>. وأياً كانت النتيجة فإننا هنا أمام إمكانية لدخول الجماعات ذات الهويّات المختلفة داخل المجتمع الواحد في صراعات تقوم على العداوة، وقد تنتهي بالعنف المفتوح.

تعمل أزمة الهوية إذن على جذب الجماعات حاملة الهوية إلى أسفل، أقصد الانكفاء على الثقافات الخاصة، والتقوقع حول الذات، والعودة إلى ثقافة الكهف وأوهامه. ولا يرجع ذلك بطبيعة الحال إلى خصائص كامنّة في الجماعة نفسها فقط؛ وإنما يرجع إلى ظروف محيطية يجب أن نضعها في حسابنا ونحن ننظر في نهاية هذا الحديث - حول أزمة الهوية - في بعض العوامل التي توجع هذه الأزمة، وتدفعها إلى مزيد من العداوة. أجادل هنا بأن ثمة عاملين مهمين يسهمان في تخليق هذا الظرف. ولا يشكّل هذان العاملان أسباباً دافعة لأزمة الهوية بقدر ما يشكلان عوامل مساعدة، عوامل تساعد البذرة الداخلية الكامنة في الهوية إلى أن تنمو.

**1 - ظروف العولمة:** تعكس العولمة نمواً هائلاً في وسائل المواصلات والاتصالات، وفي نمو الأسواق وشبكات التجارة، وتزداد القبضة الاحتكارية للشركات متعددة الجنسية، وازدياد أشكال التدفقات التكنولوجية والفكرية والإعلامية<sup>13</sup>، وزيادة الانضباط الذي يباعد بين علاقات المكان والزمان<sup>14</sup>، بحيث يصبح العالم في حالة ركض سريعة<sup>15</sup>، أو حالة انفلات وحالة شعور

David G. Bromley, *Dramatic Denouements*, in D. G. Bromley, J. G. Melton (ed.) *Cults, Religion - 12 and Violence*. Cambridge: Cambridge University Press, 2002. p. 11. 41.

A. Appadurai, "Disjuncture and Difference in Global Cultural Economy" in: M. Featherstone, - 13 (ed.) *Global Culture*, London: Suge Publications, 1990, pp. 295-303.

Anthony Giddens, *The Consequences of Modernity* (California: Stanford University Press, - 14 1990), pp. 17-21.

- 15 أنتوني جيدنز، عالم منفلت: كيف تعيد العولمة صياغة حياتنا، ترجمة وتحقيق محمد محيي الدين، ميريت للنشر والمعلومات، 2005.

عميق بعدم اليقين<sup>16</sup>، ولا شك أن هذه السرعة المذهلة في التحول الكوني الذي يسعى إلى أن يكون مجتمعاً قائماً على الشبكية ونظم المعلومات والإنتاج الدائم للمعرفة؛ تضع الهويّات المحلية (سواء كانت مجتمعات أو جماعات ثقافية ذات هويّات معينة) تضعها في مأزق. وقد أوضح كاستل Castelles بشكلٍ جليّ أن سلطة المجتمع المعولم وشبكاته ونظم معلوماته تخلق قدراً من التمرد عليه، والبحث عن نظام جديد بديل، له قيمٌ ومعتقدات مختلفة<sup>17</sup>، ولذلك فإذا كانت العولمة تعمل على توحيد العالم وخلق صيغ تكاملية عبر العالم؛ فإنها تعمل - في الوقت نفسه - على إذكاء الخصوصية الثقافية وتعميقها<sup>18</sup>. وكلما

ازداد التوتر بين ما هو معولم وما هو محلي، تأزمت الهوية، ودخلت في أشكال من الصراع مع الأبنية المحيطة، خاصة تلك التي تعبّر عن العولمة وظاهر العولمة ومجلياتها.

**لا شك أن السرعة المذهلة في التحول الكوني الذي يسعى إلى أن يكون مجتمعاً قائماً على الشبكية ونظم المعلومات والإنتاج الدائم للمعرفة؛ تضع الهويّات المحلية (سواء كانت مجتمعات أو جماعات ثقافية ذات هويّات معينة) تضعها في مأزق.**

2 - مستوى الاندماجية الوطنية: يعد مستوى الاندماجية الوطنية أحد المؤشرات المهمة في قياس قوة الدولة<sup>19</sup>. ويشير المفهوم إلى الدرجة التي تستطيع بها الدولة إدماج مواطنيها تحت لوائها، وحكّمهم في إطارٍ من العدالة وسيادة القانون، بحيث تكون النتيجة أمةً موحّدة لا يُترك منها شخص في

16 - رونالد روبرتسون: العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونيّة، ترجمة أحمد محمود ونورا أمين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1998.

17 - M. Castells, The Rise of Network Society, Vol. 1. London, Willy Editing Services, 2009.

18 - أحمد زايد: عولمة الحداثة وتفكيك الثقافات الوطنية، عالم الفكر، الكويت، العدد الأول، المجلد 32، 2003.

19 - نظر روبرت دال إلى الاندماجية الوطنية على أنها مؤشر مهم في مقارنة النظم السياسية، بجانب مؤشر التنافسية. وبناء على نموذج النظرية المقارن فإن الدرجة العالية من الاندماجية والتنافسية هي التي تشكّل النمط الديمقراطي التعددي من أنماط النظم السياسية، والذي أطلق عليه مفهوم «نظام الحكم المتعدد» Polyarchy انظر: أحمد زايد، مقدمة في علم الاجتماع السياسي، القاهرة: دار نهضة مصر، الطبعة الثانية، 2006. الفصل الخاص بمقارنة النظم السياسية.



الخلف، كما لا يُترك فيها صوت لا يُسمع، ولا يُستبعد فيها أحد. فإذا ما حققت الدولة مستوىً عالياً من الاندماجية الوطنية كانت قادرة على تطبيق نظام ديمقراطي، ونظام حوكمة شفاف، وأهمّ من ذلك حققت مستويات عالية من التنمية. ويرجع السبب في ذلك إلى أن النظام السياسي هنا يمنح الفرصة للجميع، ولا يستبعد أحداً، وينظر إلى الجماعات المختلفة نظرة متساوية.

ويحدث العكس لو انتكس النظام السياسي أو ارتكس، ودخل في عمليات تهميش واستبعاد لفئات معينة من شعبه. وتلك عملية تحدث كثيراً ولأسباب عديدة لا داعي للخوض فيها هنا. تكفي الإشارة إلى أن هذا الظرف يؤشر إلى فشل الدولة، ولذلك فإنه يحدث كثيراً فيما يطلق عليه بالدولة الفاشلة Failed States؛ ذلك أن فشل الدولة في إدارة مجتمعتها، وفي تحقيق حياة كريمة لسكانها يخلق أزمة شرعية، ويحمل عدداً كبيراً من المواطنين على النظر إلى الدولة على أنها غير شرعية<sup>20</sup>، وإذا ما حدث ذلك؛ فإن الدولة تفقد السيطرة على سكانها، وتفقد القدرة على أن تستحوذ على السكان وتدمجهم في دولة أمة قوية؛ بل إنها قد تجرّو على استبعاد بعضهم وتهميشهم، أو تميّز بين السكان على أسس طبقية أو عرقية أو دينية.

وإذا ما تخلق هذا الظرف؛ فإنه يعمل على تمهيد الأرض لنمو النزاعات المحلية والعرقية والدينية، التي تعمل كلٌّ منها على بناء هوية خاصة عبّر التركيز على رموز الجماعة وعاداتها وأساليب حياتها، وعبّر بناءً أُطرٍ لتتشبّه الأطفال على احترام الانتماء إلى الهويات الوطنية في مقابل الهوية الوطنية الأكبر. وكلما ازداد فشل الدولة في دمج سكانها، وتحقيق قدرٍ كبير من الاستجابة تجاه مطالبهم، وبناء قيم عمومية حول العدالة الاجتماعية وحكم القانون، والشفافية والنزاهة في إدارة شؤون البلاد، نقول: إنها كلما فشلت في ذلك كله يزداد تشبّه الهوية وانقسامها، ويتحول المجتمع إلى مجتمع فسيفسائي يتكون من هويات متصارعة. ويأخذ هذا الصراع أشكالاً خطائية

R. Rotberg, *State Failure and State Weakness*, in Time of Terror, Washington D. C. Brookings - 20 Institute Press, 2003. p. 85.

ورمزية أحياناً، ولكنه قد يتحوّل في أحيان إلى صراع عنيف يقوم على العنف والعداوة (أفكّر في هذا السياق في دول مثل الصومال واليمن وسوريا). ترتبط أزمة الهوية إذن بتكاثر صور الانتماء الضيق وتعدد نتائجه. ولعل أهم هذه النتائج هو ما يحدث داخل الهويّات الفرعية من صور من العداء تجاه الهويّات الأخرى، ومن تعميق الرموز وأشكال الخطاب التي تؤكد انكفاء الهويّات على ذواتها، وهروبها من المعطيات التي حوّلتها إلى الماضي.

## ثانياً: الشعبوية: المفهوم والأزمة

### 1 - تعريف النزعة الشعبوية

إنّ فشل الدولة في إدارة مجتمعها، وفي تحقيق حياة كريمة لسكانها يخلق أزمة شرعية، ويحمل عدداً كبيراً من المواطنين على النظر إلى الدولة على أنها غير شرعية، وإذا ما حدث ذلك؛ فإن الدولة تفقد السيطرة على سكانها.

اختلف الباحثون في النظر إلى الشعبوية بوصفها تشير إلى نظام سياسي أو حركة سياسية أو مذهب سياسي، وأياً كان السياق الذي تظهر فيه النزعة الشعبوية؛ فإنها تعبّر عن موقف سياسي يركّز في أفكاره ونشاطه السياسي على الشعب، حيث يوضع الشعب أو الجماهير في مقابل النخبة، بحيث يتم الركون إلى الشعب تأييداً

ومناصرة ورفعاً لشعاراته ومطالبه<sup>21</sup>. ويرتبط هذا التعريف بالاشتقاق اللغوي لكلمة الشعبوية من الكلمة اللاتينية Populus، وتعني الشعب<sup>22</sup>. وأياً كان الشكل الذي تأخذه النزعة الشعبوية؛ فإنها تأتلف حول ثلاث خصائص:

1 - البلاغة السياسية Political rhetoric، التي تعمل على نشر مشاعر عامة للقلق والخوف، وتركن إلى الاعتماد على قوة الشعب لتحدي شرعية النظام السياسي القائم.

Mauela Caiani and Paolo Gooziano 'Understanding Varieties of Populism in times of Crisis, West - 21 European Politics, 42, 6. p. 4.

متاح على الموقع التالي: [www.researchgate.net/publications/33126412](http://www.researchgate.net/publications/33126412) (تاريخ الزيارة 2020/4/25).

22 - أحمد زايد، الشعبويات في الزمن الحديث للدولة الأوروبية: نماذج الفاشيات، مجلة التفاهم، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية، عُمان، العدد: 65، 2019.



٢ - والأيدولوجية Ideology التي تنظر إلى المجتمع على أنه يقوم على انقسامية بين جماعتين، يُنظر إلى إحداهما على أنها الجماعة النقية المطالبة بالحق في مقابل «النخبة الفاسدة»، وأن السياسة يجب أن تعبر عن المصلحة العامة للشعب.

٣ - وشكل من أشكال التنظيم يتسم بوجود قيادة تكون قيادة كارزمية في بعض الأحيان، بحيث تتحول الأيدولوجية الشعبويّة إلى استراتيجية سياسية لقائد الحركة الشعبويّة أو الحزب الشعبوي، الذي يعتمد اعتماداً كلياً على تعبئة الجماهير والمفاهيم والممارسات الشعبوية وتأييدها<sup>23</sup>.

وتعتمد النزعات الشعبويّة على ذخيرة من الأفكار والاستراتيجيات التي تشكّل معالم فكرها وطريقتها في التعامل مع المشكلات التي تصادفها، وتساعد هذه الذخيرة الحركة الشعبويّة على تكوين استراتيجيتها النضالية، التي تقوم على تعبئة الجماهير وتوجيه سهام النقد إلى النخب الحاكمة، والدعوة إلى إعادة توزيع الثروة. فإذا كانت الحركة تنطلق من أيديولوجية اشتراكية فإنها تنادي بمبادئ العدل والمساواة، وتخطب الفقراء والجماعات المحرومة وتحشد الجماهير من أجل الإطاحة بالنظم القائمة لإعادة توزيع الثروة. وفي المقابل فإذا كانت الحركة تنطلق من أيديولوجية يمينية فإنها تحشد الجماهير ضد النزعات اليسارية، وتخطب الجماهير المحافظة التي لها مصلحة في استمرار الوضع الراهن<sup>24</sup>.

## ٢ - أزمة الشعبويّة: النشوة الوطنية المضطربة

وتتناقض الدعوة الشعبويّة مع مفهوم الهوية الضيقة؛ ذلك أنها تبحث عن هوية أوسع تتجاوز الهويات الضيقة، تلك هي هوية الشعب؛ فالقوى للشعب، والحكم للشعب، والدولة فوق الفرد، والمجتمع أكبر من مجموع أفرادهِ. ولذلك فإذا كانت الهوية تأخذ الإنسان إلى داخله؛ فإن النزعة الشعبويّة

23 - انظر المرجع الموجود في حاشية رقم (21).

24 - انظر المرجع الموجود في حاشية رقم (22).

تُخرج الإنسان من ذاته إلى الوطن، عبر أساليب إقناعية خطائية، تجعل الإنسان ينفك من كل رابطة، ويدخل في حالة من «النشوة الوطنية»، أو «الشيغونية الوطنية»، التي تدفع إلى مزيد من التمرکز حول «الوطن»، ومن ثم العدائية ضد الأوطان الأخرى، وربما الدخول معها في حروب، كما حدث في حاله النزاعات الشعبويّة الفاشية والنازية. هنا تدخل النزعة الشعبويّة إلى أزمة تتشابه كثيراً مع أزمة الهوية ذات الصبغة العدائية.

وتكمن جذور الأزمة في النزعة الشعبويّة في عوامل داخلية خاصة بالمعتقد الشعبوي وتداعياته، وعوامل خارجية تدفع بهذا المعتقد إلى المغالاة في التمرکز حول السلالة ونبد الآخر.

**لقد شهدت البشرية صوراً مختلفة من النزاعات الشعبويّة، ولم تشهد كل هذه النزاعات أزمات داخلية، ولقد كانت أكثر النزاعات دخولاً في براثن الأزمة مرتبطاً بالنزاعات التي طورت في معتقدها الداخلي نزاعات عدائية ضد الآخرين.**

#### 1 - العوامل الداخلية: لقد شهدت البشرية

صوراً مختلفة من النزاعات الشعبويّة، ولم تشهد كل هذه النزاعات أزمات داخلية، ولقد كانت أكثر النزاعات دخولاً في براثن الأزمة مرتبطاً بالنزاعات التي طورت في معتقدها الداخلي نزاعات عدائية ضد الآخرين. لقد شهد التاريخ حجم العدا الذي أبدته النزاعات النازية والفاشية ضد الشعوب بعامة وضد شعوب بعينها. ويشهد العالم المعاصر نمو نزاعات شعبوية تعبّر عنها الحركات الشعبويّة الجديدة، التي تنتشر عبّر العالم،

وتتزايد حدة انتشارها في أوروبا. لقد تحولت الأحزاب ذات النزعات الشعبويّة من أحزاب صغيرة غير ذات تأثير إلى أحزاب أكثر جاذبية للناخبين، إلى درجة أن صحيفة الجارديان أشارت في عام 2018 إلى أن واحداً من كل أربعة ناخبين في أوروبا يصوتون لصالح الأحزاب الشعبويّة<sup>25</sup>. ويكشف الواقع المعاصر في أوروبا عن أن معظم الدول الأوروبية بها حزب شعبي ذو توجه يميني، وبعضها

Lewis P. et. al. One in Four Europeans Vote Populist, The Guardian. Available online; www.theguardian.com/mg-interactive2018/Nov/20.



وصل إلى سدة الحكم، وبعضها الآخر يدخل في الائتلاف الحاكم، وبعضها الثالث يقف في صفوف المعارضة. ولقد أشارت الإحصاءات الأخيرة إلى تقدّم كبير للأحزاب القومية والشعبويّة في دول أوروبا، فقد تفوقت على أحزاب اليمين واليسار، حاصلة على أغلبية في بعض البلدان مثل المجر وإيطاليا وبولندا (61%، 57.8%، 53.6% على التوالي). وجاءت النسب في البلدان الأخرى أقل، ولكنها تكشف عن أن الحركات الشعبويّة والقومية تكسب أرضاً جديدة (فقد تراوحت النسب التي حصلت عليها الأحزاب من هذا النوع ما بين 33.9% في المملكة المتحدة و18.2% في النمسا<sup>26</sup>. وتلتف في الحركات والأحزاب الشعبويّة حول أيديولوجيات قومية ونزعات محلية nativism، حيث تولّد القومية مشاعر حب الوطن والركون إلى التاريخ والماضي، بينما تولّد النزعة المحلية التحيز لأبناء الوطن ضد الأغيار أو الغرباء<sup>27</sup>.

٢ - العوامل الخارجية: ولا تفهم هذه العوامل الداخلية إلا في ضوء فهم الشروط الخارجية التي حرّكتها، وجعلت بذرتها تنمو وتزدهر. يبدو أن لا فكاك من ظرف العولمة الذي أكدنا عليه في بحثنا عن أزمة الهوية. لقد خلقت العولمة شروطاً لوجود جديد، وجود كوني يربط كل الكيانات القومية في مجتمع شبكي لا فكاك منه؛ ولذلك فمثلاً أدت العولمة إلى تأزم الهويّات المحلية الصغرى، وقد أدت أيضاً إلى تأزم الهويّات القومية الكبرى. وعلى هذه الخلفية أشار إيريك هوبسباوم Eric Hobsbawm إلى أن الطابع غير المتوقع للتغيرات الكونيّة هو الذي دفع الناس نحو اللجوء إلى المشاعر التي تريحهم في النزعة القومية، واللغوية والعرقية<sup>28</sup>. ومع التسليم بهذه الفرضية فإن تأثيرات العولمة يجب ألا تؤخذ هكذا على إطلاقها، بل يجب النظر في بعض التفاصيل التي تدفع شعوباً إلى التخلي عن المُثل الديمقراطية، وتتجه

26 - انظر هذه الإحصاءات في التقرير المنشور في الموقع التالي حول نصيب الأحزاب الشعبويّة والقومية من الأصوات في الانتخابات البرلمانية في عدد من الدول الأوروبية عام 2019: [www.statista.com/statistics/11027753/populist-vote-share-in-eu-elections/](http://www.statista.com/statistics/11027753/populist-vote-share-in-eu-elections/) (تاريخ الزيارة 2020/5/9).

27 - Smith B, *Chosen People: Sacred Sources of National Identity*, Oxford University Press. 2003.

28 - Eric Hobsbawm, *Globalization, Democracy and Terrorism*, Alan Lane, 2007.



نحو الدفاع عن الحكم الشعبوي؛ أي التخلي عن التعددية في مقابل الواحدية والكلية والشمولية. يمكن أن نفكر في هذا السياق في عاملين فرعيين في إطار التأثير الكلي للعولمة:

أ - الأول يتعلّق بالآثار التي ترتبت على الأزمة الاقتصادية التي شهدها العالم المعاصر، والتي تمثلت في صور من الكساد بدأت منذ بداية الألفية الثالثة، واستمرت في فترات متقطعة فيما بعد ذلك. ورغم أن الباحثين يختلفون حول العلاقة بين الأزمة الاقتصادية وبين نشوء النزعة الشعبوية - حيث ينكر بعضهم إمكانية إقامة علاقة بين الأزمة وبين قيام الشعبوية؛ نظراً

لغموض مفهوم الأزمة وصعوبة قياسها - فإن ثمة إمكانية لإيجاد علاقة بينهما؛ من حيث إن الأزمة تفتح المجال لتغيرات، ومن ثم إمكانية القول بأن العلاقة بين الشعبوية والأزمة علاقة معقدة وذات بُعدين؛ «فالشعبوية تنبثق من الأزمة، وتستفيد منها من أجل تحقيق نجاح في مسعاها»، كما أن العلاقة بين الأزمة والشعبوية هي علاقة؛ دائرية، فالأزمة تؤدي إلى الشعبوية والشعبوية تضع زيتاً وتشكل فتيلاً للأزمة<sup>29</sup>. وبالتطبيق على حالة أوروبا فإن صور الكساد التي سادت يفترض أنها أدت إلى توليد خطاب شعبوي، تكشف عنه مؤشرات عدة، منها ازدياد عدد الأحزاب الشعبوية في أوروبا، وظهور مفهوم الأزمة في الخطاب السياسي، ودور الأزمة في سقوط دولة الرفاهية<sup>30</sup>.

ب - والثاني يرتبط بازدياد موجات الهجرة؛ لقد تراكمت الآثار المتحققة من الأزمة الاقتصادية، لتعمل على تأجيج مشاعر التحيز للوطن في مقابل الكائنات الأكبر (الاتحادات والمنظمات الأوسع كما هو الحال في

29 - انظر المرجع الموجود في حاشية (27).

Maria Daniela Poli "Contemporary Populism and the Economic Crisis in Western Europe, *Baltic Journal of Political Science* No 5, December 2015. p. 44.



الاتحاد الأوروبي)، وفي مقابل الكيانات الأصغر (الهويات الضيقة النطاق). ويدعوننا هذا إلى أن نناقش على عجلة الدور الذي لعبته الهجرة المتدفقة عبر العالم في إعطاء دفعة قوية للمشاعر الشعبوية. لقد شكّل المهاجرون - المختلفون في أعدادهم وأديانهم وأساليب حياتهم - هويات مختلفة داخل الكثير من المجتمعات الأوروبية. ولقد قدرت الإحصاءات أن أعداد المهاجرين عبر العالم قد وصلت في منتصف عام 2019 إلى حوالي 271.6 مليون مهاجر. وهي تشكل نسبة 3.5% من إجمالي سكان العالم، وبجانب موجات الهجرة - التي دفعت بكل هذا العدد إلى الحركة عبر العالم - ازدادت أيضاً موجات اللاجئين بسبب الحروب والأزمات الاقتصادية والبيئية الحادة، حيث تشير الإحصاءات إلى أن أعداد اللاجئين إلى قارة أوروبا عبر العالم قد بلغت في عام 2018 حوالي 20.4 مليوناً من اللاجئين<sup>31</sup>. وعلى غرار ما ذكرنا في حالة الأزمة الاقتصادية فإن العلاقة بين ازدياد أعداد المهاجرين وانبعاث الشعبوية ليست علاقة سببية بالضرورة. وتؤكد التقارير الصادرة عن الجهات الرسمية في أوروبا هذه الحقيقة؛ ولكنها تؤكد في الوقت نفسه أن الهجرة والمهاجرين أصبحتا موضوعاً رئيساً على قاعة أعمال الأحزاب والحركات الشعبوية، كما تؤكد في الوقت نفسه على أن مراحل الهجرة إلى المجتمعات الأوروبية - التي تمت فيها النزاعات الشعبوية - قد أخذت خطأً متصاعداً يرتبط بازدياد العداء ضد المهاجرين؛ وأن هذا العداء بدأ في الخطاب الإعلامي أحياناً، ثم انتقل إلى مزيد من التصعيد، مع ظهور الميل نحو تشجيع الأحزاب اليمينية التي تحارب الهجرة، وتضع قيوداً على مزيد منها، ثم وصل في النهاية إلى ذروته مع ظهور المد الشعبوي الذي يعادي الهجرة والمهاجرين، ويضع سياسات للحدّ منها<sup>32</sup>.

31 - انظر الإحصاءات الواردة في التقرير المعنون Migration Data Patrol متاح على الموقع التالي: [WWW.MigrationDataPatrol.Org](http://WWW.MigrationDataPatrol.Org) (تاريخ الزيارة 2020/5/6).

32 - انظر: *European Migration Policy and the rise of Populism*, available online: [www.vuesdeurope.eu/en/opinion/migration](http://www.vuesdeurope.eu/en/opinion/migration) (تاريخ الزيارة 2020/5/6).

### ثالثاً: خاتمة الهوية والشعبوية: جدل الهبوط والصعود

تبدو الأسباب واحدة، وتبدو النتائج مختلفة ومتناقضة وإن كانت تصب في النتيجة نفسها: أزمة تتخلق، تارة عبر الانكفاء على قيم الماضي والتاريخ والذاكرة المشتركة للجماعة الضيقة، وتارة أخرى حول التوحد مع كليات الوطن والشعب والتكامل القومي، وتكون النتيجة واحدة: عدا، ونبذ للآخر، ورفض لكل ما هو مختلف. لقد أكد لنا التحليل السابق إلى أي مدى يقوم عالمنا المعاصر على تناقض صريح حول منظومات القيم الحاكمة للسلوك،

إنّ البشر في هذا العالم لا يمكنهم الفكك من أسر العولمة، بكل ما فيها من تدفقات اتصالية وتكنولوجية واستهلاكية وفكرية. ولكن هذا الارتباط بالسياق الأكبر يجعل الإنسان يبحث من جديد عن ثقافته المحلية، التي تكاد تذوب من تأثير هذه التدفقات.

وعلى تفكك واضح بين ما هو جزئي وما هو كلي. وينعكس ذلك في تباين معايير قيم الانتماء؛ فالهويّات الضيقة تسحب الأفراد إلى أسفل، وتدخلهم إلى كهوف الماضي، تهبط بهم إلى الاصطفاف حول الدين والعرق والسلالة والإقليم، وصناعة حدود حول كل هذه الهويّات، من خلال الاحتفاظ بأساليب حياة خاصة ورموز خاصة. وفي المقابل تسحب الهويّات الكبرى الأفراد إلى أعلى، وتدخلهم في مجازات البلاغة السياسية، وإلى الاصطفاف حول مفاهيم الشعب والوطن والأمة، ليصبح حدود الوطن هو السقف الأعلى الذي لا يتم تجاوزه أو النكوص عنه.

وأكد أفهم هذا التناقض في منظومات القيم والانتماء - بين الضيق والاتساع، بين كهف الهوية وكهف الوطن - على أنه يرتبط بالتناقض القائم في سياق العولمة بين الكوني والمحلي؛ فالبشر في هذا العالم لا يمكنهم الفكك من أسر العولمة، بكل ما فيها من تدفقات اتصالية وتكنولوجية واستهلاكية وفكرية. ولكن هذا الارتباط بالسياق الأكبر يجعل الإنسان يبحث من جديد عن ثقافته المحلية، التي تكاد تذوب من تأثير هذه التدفقات؛ فيحاول بعث مشاعر الهوية المؤسسة على الدين أو العرق أو الثقافة أو الإقليم.



ويظل هذا النزوع نحو البحث عن الهويّات الضيقة قائماً ومستمراً، ولكنه لا يمنع من البحث عن هويّة أوسع، تلك هي هويّة الشعب أو الأمة أو الوطن التي تبحث عنها النزعات الشعبويّة.

وفي ضوء هذه الفرضية يصح لنا أن نفترض أننا بإزاء أكولوجيا للقيم فى عالمنا المعاصر، ترتبط بروى للعالم، تتدرج من الرؤية الكونيّة الواسعة النطاق التي تعكس قيم العولمة على اختلاف منطلقاتها المادية والمعنوية، مروراً بالقيم الوطنية التي تعكس روى شيفونية تجاه الوطن والشعب، وانتهاءً بالقيم المحلية التي تعكس الولاءات القبلية والعرقية والثقافية. ولا تغيب عنا الحقيقة المهمة التي مفادها أن هذه المستويات تعكس من الداخل تنوعات كثيرة، تجعلنا ننظر إلى العالم المعاصر وكأنه فسيفساء من القيم والهويّات والروى التي تشي بقدر كبير من التشظّي والانقسام.

وقد يكون مفيداً عند هذه النقطة أن نختم هذه المجادلة بالعودة إلى خصائص العولمة، التي سبق أن أشرنا إليها بأنها تمثّل عالماً لعدم اليقين، أو عالماً للمخاطر، أو الانفلات، أو الفوضى؛ وذلك بإمكانية إضافة صفة أخرى للعالم بأنه عالم ضال، يبحث الأفراد فيه عن ملاذ يأوي فيه ذاته، وهو لا يستقر داخل أي ملاذ منها، بل هو دائم التقلب والتغير بين كهف هويته الضيقة وآمال وطموحات الأيديولوجيات الشعبويّة، ودنيا العولمة غير محددة النهايات. كما أنه عالم منقسم ومتشظّ يشي بإمكانيات كبيرة للانفجار العنيف هنا وهناك، بطريقة لا يمكن ضبّطها أو التنبؤ بها.